**المحاضرة الرابعة : مدارس الأدب المقارن**

**(المدرسة الفرنسية-التاريخية-)**

تعد المدرسة الفرنسية من أقدم مدارس الأدب المقارن، حيث بدأ الأدب المقارن يدّرس في فرنسا ابتداء من 1827م على يد ثلة من الدارسين وفي مقدمتهم **آبل فيلمان**، الذي ألقى مجموعة من المحاضرات في جامعة السوربون في باريس، وتطرق فيها إلى مصطلح الأدب المقارن، كما قدم فيلمان في محاضراته هذه أمثلة على التأثير المتبادل بين الأدب الإيطالي والأدب الفرنسي ونظيره الإنجليزي.

ولم يكن **فيلمان** هو الوحيد الذي تطرق إلى هذه القضية، حيث اتجه جاك أمبير إلى معالجة نفس القضية في محاضرة ألقاها في مارسيليا عام 1830، ثم انتقل ليحاضر في جامعة السوربون أين تحدث هناك عن علاقة الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية الغربية في العصور الوسطى.

عرفت المدرسة الفرنسية تطورها من خلال أبحاث **فان تييغم** و **فرانسوا غويار** وخاصة مؤلفهما المعنون بـ "الأدب المقارن" وقد قامت المدرسة الفرنسية على مجموعة من الأسس وهي:

أ/ **التأثير والتأثر**: والمقصود بهذا المصطلح هو الاعتراف بوجود التبادلات الأدبية بين مختلف الآداب، ومن ثم إثبات وجود تأثير أديب ما من قومية معينة على أديب آخر من قومية أخرى، وهذا من خلال بحث واستقصاء المقارن لهذه التبادلات، كأن يحدد تأثير الأدب الفرنسي على الأدب الألماني وما أخذ أو استعار منه، ويفضي هذا البحث عادة إلى نتائج ذات طبيعة تاريخية.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نقدمها تأثير الألماني **يوهان ولفغانع غوته** على أدب **ليو تولستري** الروسي، وعن هذا الموضوع أصدر الروائي الألماني **توماس مان** كتابا عنوانه (غوته و تولستري) سنة 1922، حيث قارن فيه بين الروائي الروسي **تولستري** والشاعر الألماني **غوته**، واشترطت المدرسة الفرنسية أن لا ينتمي الأديبان إلى قومية واحدة واعتبرت ذلك بمثابة موازنة.

فمثلا لا تستقيم المقارنة بين **بشار بن برد** و **أبي العلاء المعري** لأنها لا تدخل ضمن اهتمامات الدراسة المقارنة، وإنما هي مجرد موازنة في الأدب العربي المكتوب في العصر العباسي ، أما إذا أجرينا مقارنة بين **المعري** من خلال رسالة الغفران، والكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي **دانتي أليجري** فهي تدخل في صميم الدراسات الأدبية المقارنة التي تبحث في تأثير الأدب العربي في الأدب الإيطالي من خلال هذا النموذج.

**ب/ النزعة التاريخية**:

هي نزعة انتشرت على نطاق واسع في أوروبا وفرنسا على امتداد القرن 19، ويرى أصحاب هذه النزعة أن تاريخ الأدب هو تاريخ مصادره ومواضيعه ومواده الأدبية، التي تنتقل داخل الأدب القومي، وبين الآداب القومية بصورة يمكن دراستها وتتبعها بالوثائق والأدلة، كما أن الدراسة المقارنة لتلك الآداب تدل على وجود علاقات تأثير وتأثر بينهما على أساس السببية الصارمة، فانتقال مادة أدبية من أدب إلى أدب آخر ليس انتقالا عشوائيا، بل هو علاقة تاريخية قائمة على السببية، وعلى الأدب المقارن أن يبرهن على هذا بصورة لا تقبل الجدال، أي أن يبين مصدر التأثير وواسطته التاريخية.

**ج/ النزعة الوضعية:**

تقول الفلسفة الوضعية أن المعرفة الصحيحة هي التي تستند إلى قاعدة تجريبية قابلة للمراجعة بصورة عبر ذاتية، أما المعرفة التي تقوم على التخمين والحدس والتفكير والمقارنة فقط فهي معرفة غير موثوقة ولا يعتد بها.

انتقلت هذه النزعة إلى الدراسات الأدبية فدعا أنصارها الذين كان من أبرزهم الناقدان الفرنسيان سانت بوف، وهيبوليت تين إلى تحويل نلك الدراسات إلى علم موضوعي يقوم على أساس تجريبي تماما كالعلوم الأخرى، وقد دعت المدرسة الفرنسية التقليدية إلى اعتماد المنهج التجريبي في دراسات التأثير والتأثر وهذا بعدم الاكتفاء بتخمين وجود التأثير بل البرهنة على وجوده بالأدلة والوثائق.

أسهم هذا النوع من الدراسات في سد الفجوات في تاريخ الآداب القومية الناتجة عن حصر الآداب داخل حدود القومية، مغفلا الامتدادات والأبعاد الخارجية التي تتجاوز الحدود اللغوية القومية للآداب، والبحث عن العلاقات بين مختلف الآداب، وقد فندت دراسات التأثير فكرة أصالة أو تفرد أو خصوصية أو عبقرية الأدب القومي، كما بينت أن الآداب في حالة تفاعل وتبادل وأخذ وعطاء واستيراد وتصدير، كما أسهمت دراسات التأثير التي ابتكرها وطورها ورعاها النقد الفرنسي في إظهار ضخامة التأثير الذي مارسه الأدب الفرنسي على الآداب الأخرى، وبالتالي فقد خدمت مثل هذه الدراسات نزعة التعالي الثقافي الفرنسي، وهي نزعة قومية توسعية، شكلت في الماضي مقوما من مقومات الإيديولوجية الاستعمارية الأوروبية، وهي تشكل اليوم الأساس الفكري والثقافي لما يعرف بالفرانكفونية.

**د/ وسائل التأثير:**

يتم التأثير عن طريق مجموعة من العوامل فقد يكون عن طريق الاطلاع المباشر على نص أجنبي، أو من خلال التعرف عليه مترجما أو عن طريق الرحلات والبعثات العلمية أو الهجرات أو عن طريق النقد الأدبي، ةتحتاج عملية التأثر إلى جهة مرسلة (الكاتب) وهو الذي يؤثر، ووسيلة نقل، حيث تلعب هنا الترجمة والنقد الأدبي وجهة مستقبلية لما قد يعرف بالأدب المتأثر.

***النقد الموجه للمدرسة الفرنسية*:**

أظهرت المدرسة الفرنسية الكثير من الضعف التطبيقي نظرا لشروطها الصارمة في اجراء المقارنات الأدبية وهو ضعف طبيعي لمدرسة زضعت أولى اللبنات لحقل دراسي مستجد وهو ما فتح المجال لتطور الدراسات المقارنة، لكنها في نظر البعض عززت النزعة المركزية و التفوق لدى الأوروبيين، وكان في مقدمة من انتقدها (رونيه إيتيامبل) الذي اعتبر أن حدود الإنسانية لا تنتهي عند حدود أوروبا وأن الأدب العالمي لا ولن يتطابق مع الأدب الأوروبي ولا يقتصر عليه لذلك يجب الحذر من المركزية القومية للأدب المقارن .

كما وجهت انتقادات أخرى نلخصها فيما يأتي:

* تحويل دراسات التأثير والتأثر إلى عملية مسك الدفاتر لنشاطات الاستيراد والتصدير (على حد قول ويليك) وسيكون التصدير أفضل من الاستيراد، وهكذا سيكون الطرف المصدر هو الأفضل والأقوى.
* اتضح أن كتابة تاريخ الأدب القومي تنطوي على إشكالية كبيرة، حيث قد نجد الأدب عند قوميات مختلفة بلغة واحدة مثل الأدب الموجود في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وهنا نتساءل هل هذا تشكل هذه الآداب أدبا قوميا واحدا؟
* إن الأدب القائم على التأثير والتأثر لا يركز على الأبعاد الجمالية والذوقية وهكذا وضع حاجزا بين الجوانب التاريخية والجوانب الجمالية لدراسة الأدب.